عطاءٌ بلا حدود

ميسون العرموطي [1]

ساقتني الصدفةُ للّقاء بسيدةٍ مميزةٍ، في شهر كانون الثاني من العام 2000 في اجتماعٍ تأسيسيٍّ لأندية الخطابة الدولية في الأردن، وشاهدتُ من بين الحضور سيِّدةً وقورةً مألوفةَ الشكل. أهي السيدة هيفاء البشير التي علق اسمُها ورسمُها في ذاكرتي منذ أيام المجلس الوطني الاستشاري ومنذ انتخابات عام 1989؟!

ونادي الخطابة العالميّ هذا، هو نادٍ متعدد الجنسيات والخلفيَّات والأعمار، يعمل على تطوير الذات والارتقاء بالمهارات في مختلف مناحي الحياة، وقد استغربتُ وجود السيّدة هيفاء؛ فما الذي تريد أن تضيفه لتجربتها الزاخرة؟!

لكنَّ السيدة هيفاء كانت سابقةً لعصرها؛ فقد كانت خير مثالٍ للتعلُّم واكتساب المعارف والمهارات طوال الحياة.

وأنا شخصيًّا أعتبر أنَّ انتسابي لهذا النادي من العلامات الفارقة في حياتي؛ فالبناء والتجديد على ما اكتسبناه ضروريٌّ لمواكبة متطلبات العصر، ومن هنا ازداد إعجابي بهذه السيدة التي رغم تقدُّمها في السِّن ورغمَ كلِّ الصّعاب والتحديات في رحلة عمرها، لم يثنها كلُّ ذلك عن تطوير الذات، وقد بدأَتْ لغة التواصل والأُلفة تنبتُ ما بيننا، وبتُّ أشعرُ بمدى تقاربنا فكريًّا.

كان وجودي في نادي الخطابة الدولية مدخلًا للتعرُّف على جمعية الأَسِرّة البيضاء، وبدأَتْ زميلتي السيدة هيفاء تدعوني لحضور اجتماعات هذه الجمعية، وكنتُ أذهب على

(1) رئيسة جمعيّة الأَسِرّة البيضاء.

استحياء؛ فلم أرغب يومًا في أن أكون عضوًا بشكلٍ رسميٍّ في أيٍّ من المؤسسات الخيرية التطوعية، وذلك لأنه كان قد عَلِقَ في ذهني سابقًا أنَّ الجميع في مثل هذا النّوع من المؤسسات يعمل لصالح مجد الرئيس. لكنْ في ما بعد، ثَبَتَ لي العكس وأنَّ هذه السيدة تعمل بطريقةٍ أخرى متمثلةً القول: «كبير القوم خادمهم».

كلُّ ذلك جعلني أُولي العملَ الاجتماعيَّ مزيدًا من الاهتمام، وأنظر إليه بمنظورٍ مختلف، وقد ترددتُ كثيرًا ولعدةِ سنوات في الانضمام لعضوية الجمعيّة رغمَ دعمي المستمر لها وحضوري الفعاليات المختلفة التي تقيمها، إلى أن أصبحتُ عضوًا رسميًّا بتاريخ 1/ 1/ 2005.

وعن مسيرة جمعية الأَسرّة البيضاء التي انبثقت فكرتها عام 1970 من خلال وجود نقصٍ في الأيدي العاملة في مجال التمريض والمهن الطبية المساندة، أقول إنّ السيدة هيفاء البشير دعَتْ مجموعةً من زوجات الأطباء لتكوين نواة لجمعيّة تُعنى بهذا الشأن، وفي ما بعد أُضيف لأهداف الجمعية رعاية السّادة كبار السن، فقد كان البدء في التأسيس عام 1971، إذ كانت الفكرة الأساسية جديدة وطارئة على المجتمع الأردني الذي يتمتعُ بالتكافل وتقديس الكبار وتوقيرهم، فالأُسرة الممتدة تعيش في المحيط نفسه، كما أنّ الكبير لا يشعر بالوحدة، لكنْ، أيضًا كان هناك استشرافٌ للمستقبل، ذلك أنَّ العائلات أصبحت نوويَّةً، ما يعني انخراط أفراد العائلة كُلّها في العمل، ليبقى كبير السِّن وحيدًا قابِعًا بين جدران البيت بانتظار رحمة ربه، إضافةً إلى وجود العديد من المسنّين الذين لا يجدون من يعيلهم.

في البداية لم تلقَ الفكرة قبولًا في المجتمع الأردني الذي يُجلُّ كبيرَهُ، لكنْ، في ما بعد أصبحت الحاجة مُلحّةً لرعاية عددٍ من المسنين مُنحدري الصّحة ومحدودي الدخل، إضافةً إلى أنَّ الرعاية الصحية عالميًّا ومحليًّا قد جعلتْ الإنسانَ يتمتَّع بسنوات عمرٍ أطول.

تُعَدُّ دارُ الضيافة أكبر دارٍ إيوائية في الأردن لرعاية المسنّين؛ إذ أُقيمت على مساحة 27 دونمًا في منطقة الجويدة الحُرجية.

إنَّ مُخطَّط الدار ملائمٌ وطريقة الخدمة فيها صالحةٌ لقرنٍ قادمٍ من الزمن، وقد تم الافتتاح في عام 1979 بِسعةٍ تصل إلى 130 نزيلًا يقومُ حاليًّا على خدمتهم سبعون موظفًا، ويمكثون فيها حتى آخر العمر.

وهناك اتفاقيةٌ ما بين الدار ووزارة التنمية الاجتماعية التي تتكفَّل بـ 110 من النزلاء مقابل 280 دينارا شهريًّا، بالرغم من أنَّ التكلفة الفعلية في الدار للنزيل تصل إلى سبعمئة دينار في الشهر، ما بين الإقامة والطعام والرعاية الصحية والنفسية وتوفير الدواء وتغطية تكلفة طاقم الموظفين بإدارةٍ رفيعة وأيادٍ مؤهلة وخبيرة.

ومن تجربتي، يقع العبء الأكبر على الرئيس لِتَدبُّر الفرق في الموازنة، وهذا ما قامت به السيدة هيفاء خير قيامٍ عبرَ عقودٍ من الزمن، إذ وظَّفَتْ كلَّ قدراتها في الإقناع وكلَّ علاقاتها الاجتماعية لهدفٍ واحدٍ هو توفير التمويل اللازم لإدامة عمل الدار ورعاية كبار السِّن.

وقد أولت الدار اهتمامها بضرورةِ التعامل مع المجتمع المحليِّ وإدماج المُسنِّين، من خلال استقبال المبادرات الشخصية والمؤسسات التعليمية وأهل الخير من أبناء المجتمع الأردني الواحد، الذين يقضون وقتًا نوعيًّا مع المسنين، يتحدثون معهم ويُرفِّهون عنهم، ويقيمون الاحتفالات بالمناسبات المختلفة؛ مما يُقلّل الحواجز ما بين الأجيال والطبقات ويعمل على بثِّ روح الطمأنينة والفرح في نفوس الطرفين.

ويوجد في الدار حديقة منسقة لجلوس المُسنين وللمشي والاستمتاع بالطبيعة والهواء الطلق ودفء الشمس، وأحيانًا تقوم الإدارة باصطحابهم في رحلاتٍ محلية في ربوع الوطن.

كما تستفيد الدار من خبراتِ النزلاء السابقة من خلال مشاركة القادرين منهم، فالبعض يعتني بالحديقة والبعض لديه مهاراتٌ في الترجمة والعزف والغناء، مما يشعرهم بالأهمية، وأنهم ما يزالون قادرين على العطاء والإنتاج، كما تقوم النزيلات في الأعياد بإعداد المعمول ونقشِهِ باليد ليستشعروا البهجة في جوٍّ أُسريٍّ حميم.

وقد أولت الجمعية اهتمامًا خاصًّا بالمسنين القاطنين مع أُسرهم وفي منازلهم، وذلك من خلال إشراكهم في نشاطاتٍ نهارية ثقافية اجتماعية ترفيهية، ومن هنا انبثقت فكرة منتدى الروَّاد الكبار، هذا النادي النهاريّ الثقافي الاجتماعي في منطقة أم السماق الذي تم افتتاحه عام 2009، ليكون باكورةً لفكرةٍ رائدة في المجتمع؛ وذلك لتسلية السادة كبار السنِّ وإشغال أوقاتهم بكل ما يُمتِع ويفيد، فكان الذراع الثاني الداعم للجمعية والمُكمِّل لرسالتها في تخفيف العبء على الأُسر.

وخلال عقدٍ من الزمن أصبح المنتدى منبرًا ثقافيًّا يُعتدُّ به بجهود السيدة هيفاء البشير المتفرغة تفرغًا كاملًا وتطوّعيًّا، وبجهود المستشارة الثقافية الكاتبة سحر ملص.

وفي خطوةٍ وطنيةٍ جريئة للسيدة هيفاء البشير سيتمُّ استكمال متحفٍ يقع في محيط منتدى الرواد الكبار هو «رواقنا خزانة ذاكرتنا الجميلة»، الذي يهدف إلى ترسيخ الهوية الوطنية وتشكيل مرفقٍ سياحيٍّ ورافدٍ مادّي.

ومنذ عام 2015 بدأت السيدة هيفاء البشير بتعزيز دوْرِي، والتلميح بقوةٍ برغبتها في أن أكون خليفةً لها في رئاسة الجمعية.

وبعدَ إلحاحٍ شديد، وجدتُ نفسي أنصاع للأمر، فكانت انتخابات عام 2018 نقُطةً حاسمةً، وكان لا بُدَّ مِن ترشيح نفسي لأفوز بالرئاسة، وفي تلك اللحظة شعرتُ بِعِظَم المسؤولية وعاهدتُ نفسي أن أكمل الرسالة وأسير على النهج القويم وأبني على جهود من سبقوني.

أمَّا طبيعة العمل في هذه الجمعية فتتمثل بالشفافية وسيادة القانون وروح الجماعة والعمل كفريق. وأقولُ صادقةً إنَّ روح التنافس في بذل الخير والعطاء ما بين العضوات مدعاةٌ للسرور ومثالٌ يُحتذى.

أما عن مبنى دار الضيافة للمسنين، فقد اعتَرَتْه عوامل التآكل والقِدَم، وكانت اللفتة الكريمة لجلالة الملك عبد الله الثاني بن الحسين حفظه الله ورعاه خلال زيارته الكريمة

للدار، التي صادفت يوم وقفة عيد الفطر من العام 2019، الأثر الكبير؛ فقد أمر جلالته كادر الديوان الملكي الهاشمي العامر بالبدء الفوري بإعادة الصيانة والتأهيل والتجديد، بما يحفظ كرامة قاطنيها ليعيشوا في جوٍّ مُريحٍ ولائق وجميل.

ومن خلال العمل الدؤوب تحوَّلت الدار إلى واحةٍ خضراء جميلة تأسر القلوب وتبعث الراحة في النفوس، وقد انعكس ذلك على نفسية النزلاء والموظفين، إذ أصبحت توازي فندقًا راقيًا من الدرجة الأولى، خاصةً أنّ الدار تتمتع بإدارةٍ طيبة وذات خبرة في المجال التمريضيّ والإداري والطبّي.

إنَّ هذه الصورة المُشرِّفة لا تعني أنّه لا توجد هناك مشاكل تمويلية؛ فنحن نعاني من مشاكل في الحفاظ على أذرعنا المُدرّة للدخل، مثل دكان مستشفى الجامعة الأردنية وكافيتيريا مسشفى البشير التي ساعدت على إدامة رسالة الجمعية على مرِّ السنين.

ولقد تخطَّى عمر الجمعية نصف قرنٍ من الزَّمن، وبقِيَتْ شامخةً كالطَّود الأشمِّ رغم كلِّ الصعوبات والظروف والتحديات المادية.

إنَّ التخطيط الاستراتيجيّ المستقبليّ يفرض علينا أَن نكون مواكبين للعصر، لذلك ارتأَت الجمعية أن تتوسَّع بفتح باب العضوية، ليتمّ استقطاب الجيل الجديد لاستمرارية العمل والاستفادة من الخبرات الثرية.